

تفسير ابن كثير

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنَعْمُ
أَجْرُ الْعَامِلِينَ

(وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده) أي : يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة ذلك
الثواب الوافر ، والعطاء العظيم ، والنعيم المقيم ، والملك الكبير ، يقولون عند ذلك : (
الحمد لله الذي صدقنا وعده) أي : الذي كان وعدنا على السنة رسله الكرام ، كما
دعوا في الدنيا : (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف
الميعاد) [آل عمران : 194] ، (وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي
لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق) [الأعراف : 43] ، (وقالوا الحمد لله
الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا
فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) [فاطر : 35 ، 34] . وقولهم : (وأورثنا الأرض نتبواً
من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) قال أبو العالية ، وأبو صالح ، وقتادة ، والسدي ،
وابن زيد : أي أرض الجنة . وهذه الآية كقوله : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن

الأرض يرثها عبادي الصالحون) [الأنبياء : 105] ، ولهذا قالوا : (تتبأ من الجنة حيث

نشاء) أي : أين شئنا حللنا ، فنعم الأجر أجرنا على عملنا . وفي الصحيحين من حديث

الزهري ، عن أنس في قصة المعراج قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " أدخلت الجنة

، فإذا فيها جناز اللؤلؤ ، وإذا ترابها المسك " . وقال عبد بن حميد : حدثنا روح بن عبادة ،

حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا الجريري ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد [رضي الله عنه]

أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سأل ابن صائد عن تربة الجنة ؟ فقال : درمكة

بيضاء مسك خالص : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " صدق " . وكذا رواه

مسلم ، من حديث أبي مسلمة ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد ، به . ورواه مسلم [أيضا]

عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن أبي أسامة ، عن الجريري ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد

؛ أن ابن صائد سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن تربة الجنة ، فقال : " درمكة

بيضاء مسك خالص " . وقول ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو غسان مالك بن

إسماعيل ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عاصم بن ضمرة ، عن علي بن أبي

طالب - رضي الله عنه - في قوله تعالى : (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا) ، قال

: سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة ، فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت
ساقها عينان ، فعمدوا إلى إحداهما فتطهروا منها ، فجرت عليهم نضرة النعيم ، فلم تغير
أبصارهم بعدها أبدا ، ولم تشعث أشعارهم أبدا بعدها ، كأنما دهنوا بالدهان ، ثم عمدوا
إلى الأخرى كأنما أمروا بها ، فشربوها منها ، فأذهبت ما كان في بطونهم من أذى أو قذى
، وتلقتهن الملائكة على أبواب الجنة : (سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) . ويلقى
كل غلمان صاحبهم يطيفون به ، فعل الولدان بالحميم جاء من الغيبة : أبشر ، قد أعد الله
لك من الكرامة كذا وكذا ، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا . وقال : وينطلق غلام
من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين ، فيقول : هذا فلان - باسمه في الدنيا - فيقلن :
أنت رأيتَه ؟ فيقول : نعم . فيستخفن الفرح حتى تخرج إلى أسكفة الباب . قال : فيجاء
فإذا هو بنمارق مصفوفة ، وأكواب موضوعة ، وزرايى مبثوثة . قال : ثم ينظر إلى تأسيس
بنيانه ، فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ ، بين أحمر وأخضر وأصفر [وأبيض] ، ومن
كل لون . ثم يرفع طرفه إلى سقفه ، فلولا أن الله قدره له ، لألم أن يذهب ببصره ، إنه
لمثل البرق . ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين ، ثم يتكىء على أريكة من أرائكه ، ثم

يقول : (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) [الأعراف : 43

[الآية .ثم قال : حدثنا ، أبي حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدي ، حدثنا مسلمة بن جعفر البجلي قال : سمعت أبا معاذ البصري يقول : إن عليا - رضي الله عنه - كان ذات يوم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " والذي نفسي ، بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون - أو : يؤتون - بنوق لها أجنحة ، وعليها رحال الذهب ، شراك نعالهم نور يتلأأ كل خطوة منها مد البصر ، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان ، فيشربون من إحداها فيغسل ما في بطونهم من دنس ، ويغتسلون من الأخرى ، فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبدا ، وتجري عليهم نضرة النعيم ، فينتهون - أو : فيأتون - باب الجنة ، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب ، فيضربون بالحلقة على الصفيحة ، فيسمع لها طنين يا علي ، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل ، فتبعث قيمها فيفتح له ، فإذا رآه خر له - قال مسلمة : أراه قال : ساجدا - فيقول : ارفع رأسك ، فإنما أنا قيمك ، وكتلت بأمرك . فيتبعه ويقفو أثره ، فتستخف الحوراء العجلة ، فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه ، ثم تقول : أنت حيي ، وأنا حبك ،

وأنا الخالدة التي لا أموت ، وأنا الناعمة التي لا أبأس ، وأنا الراضية التي لا أسخط ، وأنا
المقيمة التي لا أظعن " . فيدخل بيتا من أسه إلى سقفه مائة ألف ذراع ، بناؤه على جندل
اللؤلؤ ، طرائق أصفر وأخضر وأحمر ، ليس فيها طريق تشاكل صاحبته ، في البيت سبعون
سريرا ، على كل سرير سبعون حشية ، على كل حشية سبعون زوجة ، على كل زوجة
سبعون حلة ، يرى منح ساقها من باطن الحلل ، يقضي جماعها في مقدار ليلة من لياليكم
هذه . الأنهار من تحتهم تترد ، أنهار من ماء غير آسن - قال : صاف ، لا كدر فيه -
وأنهار من لبن لم يتغير طعمه - قال : لم يخرج من ضروع الماشية - وأنهار من خمر لذة
للشاربين - قال : لم تعصرها الرجال بأقدامهم - وأنهار من عسل مصفى - قال : لم يخرج
من بطون النحل . يستجني الثمار ، فإن شاء قائما ، وإن شاء قاعدا ، وإن شاء متكئا - ثم
تلا (ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا) [الإنسان : 14] - فيشتهي الطعام
فيأتيه طير أبيض - قال : وربما قال : أخضر . قال : - فترفع أجنحتها ، فيأكل من جنوبها ،
أي الألوان شاء ، ثم يطير فيذهب ، فيدخل الملك فيقول : سلام عليكم ، تلکم الجنة
أورثتموها بما كنتم تعملون . ولو أن شعرة من شعر الحوراء وقعت لأهل الأرض ، لأضاءت

الشمس معها سوادا في نور " .هذا حديث غريب ، وكأنه مرسل ، والله أعلم .